الباب الحادى والثلاثون

رحلة السعدى إلى ماسنة

وفى أواسط ذى القعدة الحرام من هذا العام سافرت إلى سيد الأخ محب الفاضل الفقيه محمد سنب قاضى ماسنة لزيارته فطلبها منى منذ أعوام لم يُقدرها الله سبحانه وتعالى إلا فى هذا الوقت ، وهو أول رؤيتى لتلك الجهة .

فلما وصلنا حلة السيد المذكور التقيناه غائباً إلى حلة السلطان حمد آمنة ، فبعث له الأعلام هنالك بوصولنا فردَّ إلى المرسول بالتخيير بين أن ألحقه هنالك لرؤية السلطان والسلام عليه ، وبين أنْ أبقى فى حلته حتى يَقدُمَ علىّ فيها ، ثم نرجع إليه متصاحبًا للسلام والرؤية ، فاخترت الأول لأجل وضع المشقة عنه فى رجوعه ثانياً ، فمشيتُ إليهم عزيزًا مُكرّماً ، وما وصلنا إلا فى الغد .

فلما قربنا حلته أذن السيد القاضى به السلطان ، فبعث هو إلى مرسوله للقائى فوصلنا الحلة ودخلنا منزلنا وقت الضحى ، وصادف بنزول الغيث ولم يرَ كل واحد منا أحداً إلا بعد صلاة الظهر ، فمشيت ساعتئذ عند السيد القاضى فى منزله ، فرحَّب بى وفرح فى غاية الفرح والسرور ، ودعا لى بخير .

فنهض معى إلى السلطان فى داره ورحب بى كذلك ، ووافقت بوصول عامل زنكل عنده ، وحضر جميع كبرائه ، وقُرئ عليهم كتاب القائد ملوك بما أمر به الباشا على من العفو عنه .

وقبض زنكل منه ففرح بذلك فرحًا عظيمًا ، فقال هو فى ناديته بعدما تكلم كنبع داود ، وهو صاحب الكلام أولاً . قال : الآن تحققتُ لى السلطنة حيث قبل منا الباشا مطلب زنكل ، ثم قال للكبراء الذين كان زنكل مشومًا على أيديهم . الله الله فى تحصيلها بالسرعة والاجتهاد ، ويكون مليحًا مختاراً وأنا خائفٌ من الباشا على ، قالها ثلاث مرات .

ثم تكلم كنبمع فقال : الآن نحن نخاف منك جميعًا ، حيث قلت أنك تخاف من الباشا ، فقرأوا الفاتحة وتفرّقوا على هذا . وبتنا هنالك تلك الليلة ، وفى غد فرغوا من الأمر الذى من أجله أتاهم السيد القاضى ، فعزم على الرجوع إلى حلته .

وبعث للسلطان بأنى راجعٌ معه ، فيقال : ما زال لم يستأنس بى فليمض هو على بركة الله تعالى ، وأنا لاحقٌ به إنْ شاء فما رضى وعزم على الانقلاب معى .

وفى عشية ذلك اليوم أتاه السلطان فى منزله فحضرت معه ، ثم قال له السيد القاضى : زيارته هذه لنا ما قدرها الله سبحانه إلا فى أيامك ، وجعلها فى رزقك لأنّى طالما التمستها منه منذ ولاية عمك إبراهيم ، فلم يقدرها الله تعالى إلا فى هذا الوقت.

وأنا ولا بدّ إنْ شاء الله تعالى عازمٌ غدًا على الرجوع إلى دارى ، ولا أتركه ورائى أطلب الخلوة فى هذه الليلة لتستأنس معه ، ففعل ذلك وأعطانى عشر بقرات ، والعطاء ليس من شأنهم لأن مال الدنيا عزيزٌ فى قلوبهم .

فرجعنا إلى داره فأبر بنا ، وأكرمنا ، وأحسن إلينا فى ضيافتنا وأحوالنا كلها أياماً عديدة ، ثم عزمتُ على الرجوع إلى دارى فى جنى ، فأعطانى من البقر عشرين ، ومن الأضحية عشر شياه .

فركب معى مشيِّعاً يوم خرجت من حلته ، فلما توادعنا بعد بُعْد المسافة قال لى : زيارتك هذه لنا أعز علىَّ من كل شيء ، وإذا منَّ الله تعالى علينا بالبقاء إلى القابل عودة لنا ، فعاودته له كذلك .

ولم يزل رأيى معه بالمروءة وحُسْن المعاشرة إلى أنْ قضى نَحبه ، والتحق بالرفيق الأعلى رحمه الله تعالى ، وغفر له ، وعفا عنه ، وجمع شملنا وشمله فى ظل العرش ، فى الفردوس بمنِّه وكرمه .

obeikandl.com